صورة النص لدى رولان بارت

حليمة الشيخ *

يحتل النص مكانة استراتيجية في عمارة رولان بارت النقدية حيث كان دوما مهتما بالنصوص من حيث هي الشكل الذي تتجسد به و فيه الكتابة التي.كانت تمثل عنده كل نسق سيميائي، فهي موجودة في النصوص الأدبية، وفي الصورة الفوتوغرافية، وفي اللباس، وفي الوجبة، وفي كل مناحي الحياة الإنسانية. ومن ثم فهي لا تنحصر في النسق الغرافي، بل تغطي المجالات الإبداعية الإنسانية كلها.

لقد ظهر مفهوم "رولان بارت" للنص الأدبي لأول مرة في مقال بعنوان: "من العمل الأدبي إلى النص"، نشر عام 1971 [1] بمجلة : «Revue d'esthétique» طرح فيه مفهوم النص من حيث هو بديل عن مفهوم العمل الأدبي. وقد تبين له أن التغيير الذي طرأ على مفهومنا عن اللغة بفضل اللسانيات قد أدى بالضرورة إلى تغيير فكرتنا عن العمل الأدبي. فلم يعد يُنظر إلى اللغة على أنها وعاء الفكر، أي أن علاقتها به ليست علاقة علة بمعلول أو ظاهر بباطن، وإنما هي علاقة تداخل. وإذا كان التبليغ أمرا ضروريا لقيام المجتمع و تواصل أفراده، فإنه لا يمثل وظيفة اللغة الوحيدة؛ ذلك بأنها تسمح للمبدع الأدبي أن ينشئ لغته الخاصة،فتكون هي الفكر نفسه وطريقة تركيبه.

ولاشك أن هذا التغيير الحاصل هو أثر من آثار التفاعل مع التطورات التي حدثت على صعيد الأنثروبولوجيا، والماركسية، والتحليل النفسي،ومرتبط أيضا بظهور الاتجاه الابيستمولوجي الداعي إلى التأكيد على وحدة العلوم بمعنى أن لا تكون نظرة الدارس إلى الظاهرة في حقل ما نظرة ضيّقة وحيدة الجانب، بل يتوجب عليه أن ينظر إليها في تكاملها و تداخلها مع ظواهر أخرى ترتبط بحقله الدارسي وبحقول أخرى. ولعل هذا كله، قد حدث بفعل تأثير نظرية النسبية لأنشتين التي أدخلت إلى العلوم جميعها مسألة نسبية المرجع.

لقد طرح "بارت" إذن، مفهوم النص الأدبي في مقابل العمل العمل الأدبي، الذي أفرزته ثبوتية المرتكزات المرجعية. ويمكن إبراز الفرق بين المفهومين من خلال تناول المستويات المختلفة في المسألة:

*- باجثة اكاديمية، معهد الترجمة، جامعة وهران1- أحمد بن بلة- الجزائر.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

1- المستوى المنهجي :

الفرق بين المفهومين ليس فرقا ماديا ولا زمانيا. الأعمال الكلاسيكية تحتوي نصوصا كما يمكن أن لا تكون النتاجات المعاصرة نصوصا. و هنا، لا يمكن تمييز النص من حيث هو شيء خارجي، وإنما من حيث هو إنتاج يخترق عدة أعمال أدبية. أما العمل الأدبي فهو معروض و مبذول للعيان.

2- مستوى الشكل أو الجنس الأدبي:

النص يتجاوز جميع الأجناس، ويرفض الانخراط تحت لافتات التقسيمات التي يخضع لها العمل الأدبي.

3- مستوى العلامة (Signe) :

النص غير قابل للاختصار أو الاختزال. إنه يقوم على التعدد؛الأمر الذي يؤدي إلى التفجير. أما العمل الأدبي فيقوم على منطق الأحادية مما يخضعه لقراءة واحدة.و تعددية النص ناتجة عن طاقته الرمزية.

4- مستوى التملك:

إن النص يطرح على نفسه مسألة الأبوة لأنه لا يحتاج إلى ضمانات أو إرشادات من خارجه، في حين يسعى العمل إلى تحديد أبوّته، والمؤلف هو الأب أو المالك بالنسبة له؛ ولذا فهو يوحي بصورة الكائن العضوي في حين يوحي النص بصورة الشبكة.

5- مستوى القراءة:

يظهر العمل الأدبي في هذا المستوى بوصفه موضوعا للاستهلاك، في حين لا يكون النص مجرد استهلاك. إنه يسمح بتحقيق متعة الإنتاج في عملية مشاركة.

و لعل أحسن صورة تبين لنا مفهوم "بارت" للنص هي الصورة التي انتزعها هو نفسه من مجال التغذية، مشبها النص بالبصل في مقابل تشبيه العمل الأدبي بالمشمش. [2] و يمكننا تلمّس أسباب لجوئه إلى هذه الصورة، من خلال الجدول التالي :

العمل الأدبي ≈ المشمش	النص ≈ البصل
- قابلية التمييز فيه بين الثمرة والنواة	- انعدام مثل هذه القابلية.
- امكانية اختزال تركيبه.	- انعدام امكانية اختزال تركيبه المكون من عدد منسق من القشور.
- يحمل في تركيبه سر الاستمرارية.	- لا يحمل في تركيبه أيّ سرّ.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

و بهذا التصور للنص الأدبي، قام "بارت" بتحليل قصة "سرازين" (Sarrasine) لبلزاك في كتاب حمل عنوان : "س/ز(S/Z)" .

إن هذا الكتاب يقوم شاهدا من جهة على تحول في مسار "بارت" الفكري و الإبداعي، و من جهة أخرى يشير إلى أن تغيّرا قد حدث داخل البنوية. وإطلالة بسيطة على الصفحات الأولى من الكتاب، توضح ذلك حيث يقول: "يقولون إن بعض البوذيين يرون العالم في حبة فول بفضل نزعتهم التقشفية. وهذا ما تريد التحليلات الأولى للقصة أن تقوله: أن ترى كل قصص العالم (و هي كثيرة) في بنية واحدة. ويعتقدون أننا بسبيل استخلاص نموذج من كل قصة، ومن تلك النماذج نقيم بنية قصصية ضخمة نطبقها على أي قصة: يا للمهمة الشاذة (...) وأخيرا نصل إلى ما لا نبتغي، لأن النص بذلك يفقد ما يميّزه من غيره. [3]. ويبدو جليا من هذه العبارات أن كتاب "س/ز" يغاير كتاب "التحليل البنوي للعمل السردي" وذلك بتخليه عن النموذج البنوي، حيث تحمل العبارات اعتراف "بارت" بقصور الذرائعيّة البنوية التي جعلت مفهوم البنية محوريا في تحليل النصوص.

و ليس من شك في أن يتسن للقراءة، بذلك، تحرير النص من نير المركزيّة،و رصده ضمن تبعثر يعجز كل أفق جاهز على احتوائه،وإعطاء المعنى حرية الانتشار بحيث يعجز كل تأسيس أن يفرض عليه الصورة ذات المركز الواحد، و الانتساب له ؛ و بذا لا يحيل النص على شيء آخر غير اللغة.

يغدو المؤلف في ظل هذه الرؤية، مجرد ناسخ (Scripteur)،و هو مفهوم استعاره "بارت " ليجعله يحلّ محلّ الكاتب، حيث يكون "ذلك الذي يكتب، مثلما أنّ الأنا ليس إلاّ ذلك الذي يقول أنا :إن اللغة تعرف "الفاعل" و لا شأن لها بـ "الشخص" [4].

وهكذا، يمعن "بارت" في فصل الكاتب عن نصه، وعده مجرد ناسخ ماهر، يعمل من أجل الآخرين بمعنى أنه لا يكتب من أجل نفسه، وفي موضوعات تكشف عن مواقفه الذاتية الخاصة. وإنما يكتب من أجل الآخرين، وفي موضوعات تفرض عليه دون أن يكون بينه وبينها علاقة ذات خصوصية معينة أي أن الكاتب يأتي إلى الكتابة دون تدخل المؤثرات الخارجية المتمثلة في الظروف التاريخية و لاجتماعية والثقافية والسياسية، والتي من شأنها أن تحمل الكاتب على اختيار مضمون كتابته، وبدون تدخل المؤثرات الداخلية التي تمثل الاستعداد النفسي للكاتب ومزاجه، ونوع ثقافته، ودافع فعل الكتابة لديه.

وهو تصور كما نرى بعيد عن طبيعة الإنسان ؛ذلك بأن أي فعل إنساني لابد أن يحمل بصمات فاعله مهما كانت درجة ميكانيكية حركته، كما أنه لا يكمن أن نميز في الإنسان بين كونه فاعلا و كونه شخصا والأبحاث القائمة في حقل علم الخط (Graphologie) دليل على ذلك؛ حيث إنها تعمل

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لإثبات العلاقة بين خط الكتابة وبين التركيبة النفسية للكاتب [5]. وتجدر الإشارة إلى أن ذلك الموقف من الكاتب تراجع عنه "بارت" فيما بعد.

ولعل مثل ذلك الفهم، كان وراء قول "بول فاليري" : "ليس هناك معنى صحيح للنص" [6] أي أن معنى النص يتسم بسمة الحركيّة مع استمرار هذه الحركيّة مع تراخي الزمن وتقدمه، وتعدد القراء و مخالفة بعضهم لبعض في فهم النص بمقدار ما يختلفون في المرجعية وبعد النظر؛ مما لا يُمكِّن من الحكم بوجود قراءة صحيحة، تقابلها أخرى غير صحيحة. وبهذا تكون القراءة هي إعادة كتابة النص، لا استهلاكا سلبيا لمنتَج نهائي. وهذا النوع من القراءة لا يتحقق إلا بفتح النص على البعد الرمزي. وهنا أقام "بارت" تفرقة بين نوعين من القرّاء[7] :

1. القارئ الساذج (Le lecteur naïf): هو الذي يقرأ النص بشكل عفوي، ومن ثم فإنه يمثل القراءة الاستهلاكية للنص.

2. القارئ الرمزي (Le lecteur symbolique): هو الذي يتعمّق في القراءة ليصل إلى الثراء الرمزي، دون أن يكون ثمة منفذ رئيسي يتوجه بموجبه. وهو ما يسميه "امبراطوايكو" بـ "القارئ النموذجي".

و ههنا موضع تأمل حيث إن "بارت" عنون دراسته لقصة بلزاك "سرازين" بـ س/ز (S/Z). وهذه الصيغة في المفهوم التقليدي لا تعدّ عنوانا؛ لأن العادة قد جرت بأن يجتزئ الكاتب بجملة واحدة أو بلفظ واحد ليدل على مضمون كتابه. وإذن، لماذا هذه الصيغة غير المألوفة ؟ :

1. - إن س و ز، يشكل كل منهما الحرف الأول في اسمي الشخصيتين المركزيتين في قصة بلزاك :

س ← سرازين

ز ← زامبيلا

أما عن صيغة كتابة الحرفين أي كتابتهما مع خط فاصل بينهما، فإنه يريد الإيحاء بذلك لإمكانية "قراءة "سرازين" من حيث هي شخصية مناقضة لزمبيلا. وهكذا يكون الأصل في العنوان "سرازين" شخصية مناقضة لزمبيلا أو عكسها أو ضدّها.

2. - إن "بارت" يعدّ عمله ذلك تجربة نقدية جديدة؛ ومحاولة تأسيسيّة لنقد جديد قائم على النظرة المتعددة (Une critique pluraliste) التي تُمكن القارئ من استنفاد كل ما يمكن أن يكون كامنا في النص من معان. ويبدو بعد هذا التوضيح، أن "بارت" أطلق على عمله ذلك عنوانا يخدم دعوته المِلّحة إلى القراءة المتعددة المتجددة التي تتحقق على يد القارئ الرمزي المستهلك و المنتج للنص في وقت واحد.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

و كما ميز "بارت" بين القراء، فقد ميز بين النصوص من خلال النظر إلى طبيعة بنائها، وهي المسألة التي تناولها في إطار مفهومين مختلفين هما "النص النسخي" (le texte scriptible) والنص القابل للقراءة (le texte lisible) [8] والفرق بينهما يوضحه في جملة من المتقابلات، يمكننا رصدها كالآتي :

النص النسخي(le texte scriptible)	≠	النص القابل للقراءة (le texte lisible)
الروائيـة	≠	الروايـة
الشعريـة	≠	القصيدة
الكتابـة	≠	الأسلوب
الانتـاج	≠	المنتوج
محاولـة	≠	رسالـة
بنينـة	≠	بنيـة

يتنافى النص النسخي . كما نلاحظ مع الوضوح الذي يقبع في النص القابل للقراءة الذي يعمل على تعطيل ديناميكية الإنتاج في القارئ. ولعل هذا هو مقصود "بارت" في قوله :" إقرأ و أنت رافع الرأس " (lire en levant la tête). [9] . ويكون النص النسخي من خلال ما سبق، هو النص الذي يتوجه إلى القارئ معتما، ودافعا إياه إلى التأمل، والبحث، ومعاودة القراءة. ولعل الحاجة إلى اللمس، كانت وراء بعض التشبيهات التي تخرج عن المعتاد، والتي كثيرا ما لجأ إليها "بارت". ويظهر ذلك، جليا، إذا نظرنا إلى مفهومه للنص الأدبي، ذلك المفهوم القائم على منطق المجاز :

أ- . "يوحي النص بصورة الشبكة". [10]

ب _. النص كالبصل." [11]

ج _النص مثل البيضة. (Un texte oeuf) [12]

د_ النص "مقعد، مكعب ذو أوجه، مادة منشطة، طعام ياباني، فوضى من الزخارف، ضفيرة، نسيج مخرّم، واد مغربي، شاشة تلفزيون في حالة عطب، عجينة مورّقة، بصل..." [13]

هـ _. "النص مثل كعكة مورّقة (Gâteau feuilleté)" [14]

ويفيد التذكير هنا أن نظرة بارت إلى النص ستتأثر بمف ـهوم التناصية عند جوليا كرستيفا، وستتبلور تبعا لذلك صورة النص الشبيه بـ: Patchwork أي الترقيع والتي وردت في كتابه: "رولان بارت بقلم رولان بارت" الصادر عام 1975 والذي يحمل صدى صورة الفسيفساء عند كرستيفا.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والنظرة الحسية. كما يبدو. هي القاسم المشترك بين تلك الصور. وإذا عدنا إلى سياقها النصي، الذي وردت فيه، تبيّن لنا، أنها تتباين فيما بينها في تاريخ اعتمادها؛ ذلك بأن كل تشبيه يرتبط لدى "بارت" بتاريخ معين، و يمكن توضيح ذلك كالآتي:

أ _ 1968

ب_ 1969

ج _ 1970.

د_ بين 1973 و 1974

هـ _ 1978

ويحمل هذا، في نظرنا دلالة على أن التشبيه ليس وسيلة للتعبير، بقدر ما هو عملية خلاّقة في تكوين المعنى نفسه؛ ذلك بأن مادية التشبيه تنقل القارئ من الإدراك الجاف للمعنى إلى مجال الحس العامر بالحياة. وهكذا يكون التشبيه أداة تحرر من الضبط الذي يفرضه صوغ المفاهيم عادة؛ حيث تكون غايته، تقديم رؤية للأشياء لا مجرّد تعرف عليها. و تلك الصور هي محصلة من تشبع الذات بمحيطها الخارجي وهي تباشر تحديد مفهوم النص الذي ينفلت من الحد الواحد، وعليه تقيم تواصلا بين المجرد والمحسوس الذي تتموقع ضمنه تجارب الإنسان. ومن هنا كان للحسي لدى رولان بارت. بعدا قادرا على ايضاح المفهوم مما يعني أن صياغة المفهوم لا تشترط الابتعاد عن الموجودات الحاملة هي أيضا للايحاءات المختلفة. إن الفكر وهو يصوغ تصوراته لا ينفصل عن الحسي بل يرتبط به ويتعمق في فهمه حتى لا تتحول المفاهيم إلى صور جوفاء.

وهذه الصور التي ارتبط بها النص لدى بارت ما هي إلا انعكاس لطموح لازمه طيلة حياته، وهو إبداع تصورات جديدة، والبحث عن لغة جديدة،الأمر الذي جعله يلجأ إلى لغة التواصل اليومي التي قدمت لكتابته النقدية نفسا إبداعيا جديدا، ووفرت له هامشا واسعا من الحرية في مواجهة إكراهات لغة النقد العلمية كما سمحت بنقد التصور الكلاسيكي للنص وللنقد على السواء، إذ إن الناقد في تصور "بارت" كاتب بالدرجة الأولى و النقد كتابة وليس تحصيل حاصل، كما ذهب إلى ذلك "محمود أمين العالم" في قوله بأن النقد الأدبي الذي تمثله البنوية الشكلية بزعامة بارت شبيه بالمنطق الصوري، ومجرد تحصيل حاصل. [15] إن النقد عند بارت هو على عكس ذلك لأنه لا يستطيع إلا أن يكون "مكملا للإبداع أي مجرد وجه من وجوهه يماشيه طورا ويجاوزه طورا آخر: ولكنه يظل دائرا في فلكه أبدا دون أن يفرض عليه وصايته الأبوية فيزعم له: أنه جيد أو رديئ، و أسوأ من ذلك: أنه صحيح أو مزيف."[16] ولا تكمن أهمية القراءة بهذا، في استكشاف المعنى الذي يريده المؤلف، بل في بناء معنى

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

جديد. و تكون القراءة بهذا هي: "العثور على معان، والعثور على معان و تسميتها، ولكن هذه المعاني المسماة تساق نحو معان أخرى، وتتجمع و تتلاحق الأسماء، وتتجمع، فيطلب اجتماعها من جديد أن يسمى: فأنا أسمّي و أسقط الاسم، وأسمّي ثانية، وهكذا يمضي النص: فهو تسمية في حالة صيرورة، مقاربة لا تتوقف، اشتغال في المجاز (Un travail méthonymique) [17]. ولقد كان طبيعيا في ظل هذه الرؤية، أن يطرح "بارت" مفهوما جديدا للنص، هو ما سماه بالنص القابل للتلقي (Lerecevable)، وهو النص الذي يتم تلقيه حسب قوله "مثل نار، مخدر، اختلال غامض." [18] ذلك بأن من آثار التخدير إحداث الاختلال. ويعني هذا بالنسبة للنص ضعف وسائل القارئ و قصر حباله أن تحيط بمعانيه، فكلما تقدم في النظر، واستكمل أدوات دراسته، ظهرت دلالة جديدة، ويغدو النص غاية لا يزال عقل القارئ يقطع إليها. فبديهي إذن، ومنطلق "بارت" على ما هو عليه. أن يتجاوز مفهوم النص عنده حدود المكتوب، والإطار اللغوي إلى أي حامل للمعنى؛ ولذا نظر إلى "اليابان" من حيث هو نص مليئ بالعلامات، فقام بتحليلها للكشف عن الشفرات الموجودة به في كتابه المعنون بـ "امبراطورية العلامات".

إن صور النص لدى بارت تكرس رؤيته المتواصلة في البحث عن لغة جديدة وفهم جديد للكتابة من أجل مقارعة الجمود، والمحافظة والثبات من خلال إدراك أهمية تداخل الحقول المعرفية كلها من وجودية وماركسية، وتحليل نفسي، وبنوية، وانثربولوجيا، وسوسيولوجيا الثقافة، وغيرها في أسلوبية تلتمس عدم الاعتماد على منهج واحد، وتؤسس حضورا فاعلا، وهو الذي كان يقول عن نفسه: "إن بي علة: أرى اللغة"J'ai une maladie: je vois le langage).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

هـوامش البحث:

1 - _أعيد نشر هذا المقال إلى جانب مجموعة مقالات أخرى في كتابه : Le bruissement de la langue, Seuil, Paris, 1984, P: 69 à 78

2 - مع العلم أن "بارط" قد خص الموسوعة العالمية بمقال عن مفهوم النص عام 1973 Roland Barthes , Le - bruissement de la langue, Seuil, 1984, P : 150

3 - Roland Barthes , S/Z, coll. points, Seuil, Paris, 1970, P : 9.

4 - -رولان بارت، درس السيمولوجيا، ترجمة عبد السلام بن عبد العالي، تقديم عبد الفتاح كيليطو، دار توبقال، المغرب، ط1986،2، ص 84.

5 - لمعرفة العلاقة انظر:

M- A.Bone et F.Kestemont , Les secrets de votre écriture, Marabout, 1993

6 - ذكره امبرطو ايكو في القارئ النموذجي ضمن "طرائق تحليل السرد الأدبي ترجمة : أحمد بوحسن، منشورات اتحاد كتاب المغرب، ط1، 1992، ص : 162.

7- -Roland Barthes , le grain de la voix, p : 89-90.

8- Roland Barthes , S/Z, p : 11.

9- -Roland Barthes , le bruissement de la langues, p : 33.

10 - رولان بارت ،درس السيميولوجيا، ص 68.

11- Roland Barthes , Le bruissement de la langue, p. 150.

12- Roland Barthes , S/Z , p. 206.

13- Roland Barthes par Roland Barthes. Coll. Ecrivains de toujours, Seuil, Paris, 1975, p. 78.

14- Roland Barthes , Le grain de la voix, p. 295.

15 - محمود أمين العالم،البحث عن أوروبا، المؤسسة العربية، سوريا، ط1، 1975، ص 93

16 - عبد الملك مرتاض، أ . ي دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة "أين ليلاي" لمحمد العيد، ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر،1992 ،ص 15

17- Roland Barthes S/Z, P: 17-18.

18- Roland Barthes par Roland Barthes, p : 122 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com